

جميلة بوحيرد بين شعرية نزار قباني وإيديولوجية سليمان العيسى

أ. احسن بوراس

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة باجي مختار - عنابة

ملخص

تناول الشعر العربي الحديث الثورة الجزائرية في كل أبعادها، وبكل تفاصيلها، ومن بين ما تناوله نضال المرأة الجزائرية إبان هذه الثورة، وقضية تعذيبها في سجون الاستعمار. وكانت قضية "جميلة بوحيرد" موضوعا شعريا شغل الكثير من الشعراء العرب، فتعددت القصائد التي تناولت جميلة، وتنوعت، الشيء الذي جعلها تتفاوت في مستوياتها الفنية، نظرا لاختلاف الاتجاهات الشعرية التي ينتمي إليها الشعراء. من بين هؤلاء الشاعر نزار قباني والشاعر سليمان العيسى موضوع الدراسة، من خلال قصيدتيهما اللتين لهما العنوان نفسه جميلة بوحيرد. أخذت جميلة عند نزار بعدا جماليا وفنيا، طبعا من خلال تركيزه على وصفها حسيا ومعنويا، فأعطى القصيدة طابعا رمزيا ورومانسيا. بينما نجد الشاعر سليمان العيسى في قصيدته أكثر تأثرا بالقضية الجزائرية، فجعل من شخصية جميلة وسيلة للتعبير عن ثورتها.

الكلمات المفتاحية: جميلة بوحيرد، الثورة الجزائرية، بعد فني، شعرية.

Djamila Bouhired entre la poétique de Nizar Qabbani et l'idéologie de Souleimane El-Aissa

Résumé

La poésie arabe contemporaine a fait état de la révolution algérienne dans toutes ses dimensions et ses détails. La résistance de la femme et sa souffrance dans les prisons du colonisateur ont été fortement décrits. Djamila BOUHIRED, figure de la résistance algérienne a sensibilisé plusieurs poètes arabes. Nous avons choisi d'analyser deux poèmes dont Djamila Bouhired est le thème principal, de poètes différents : Nizar Qabbani et Souleimane El-Aissa. Alors que Nizar Qabbani avait mis l'accent sur une description sensuelle de Djamila Bouhired ce qui a accentué la dimension artistique et esthétique du poème, Souleimane El Aissa semble plus influencé par la cause algérienne et trouve en la personne de Djamila Bouhired un moyen de décrire cette révolution.

Mots clés : Djamila bouhired, révolution algérienne, tendances poétiques, poétique.

Djamila Bouhired between the Poetics of Nizar Qabbani and the Ideology of Sulaiman Al Aissa

Abstract

The Algerian revolution in all its dimensions was an important topic in Arabic poetry. The struggle of the Algerian woman in prison during the colonial area has been described in a highly-refined way specially that of Djamila BOUHIRED. Two poets had Djamila BOUHIRED at the core of two of their poems ; Nizar Qabbani who had a sensual language and a romantic way in which Djamila Bouhired was also the archetypal feminine figure and Suleimane Al-Aissa who made of Djamila Bouhired a means to make the voice of the Algerian revolution heard .

Keywords: Djamila Bouhired, Algerian revolution, poetic tendencies, poetics.

توطئة :

الاسم : جميلة بوحيرد
 رقم الزنزانة تسعونا
 في السجن الحربي بوهرا
 والعمر اثنان وعشرون
 عينان كقنديلي معبد
 والشعر العربي الأسود
 كالصيف كشلال الأحزان
 إبريق للماء و سجان
 ويد تنضم على القرآن
 وامرأة في ضوء الصبح
 تسترجع في مثل البوح
 آيات محزنة الإرنان
 من سورة " مريم "
 و" الفتح " (1)

البياتي وغيرهم كثر، فمنهم من ركّز على القضية وغلبها على الجانب الفني، ومنهم من اهتم بالقضية في قالب شعري على قدر كبير من الجمال الفني، فأتسمت أعمالهم بالفتور. وهذا هو المراد من هذه الدراسة التي تسعى إلى إبراز الأساليب التي عالج بها الشعراء قضية الثورة الجزائرية من خلال قصة "جميلة بوحيرد". وسنركز على اسميين كبيرين من هؤلاء الشعراء وهما: الشاعر نزار قباني، والشاعر سليمان العيسى من خلال قصيدتيهما اللتين تحملان العنوان نفسه، وهو : "جميلة بوحيرد".

وستقف الدراسة عند ملامح شعرية القصيدتين، وقبل ذلك نوضح بإيجاز معنى الشعرية مصطلحا نقديا تبني على ضوءه النصوص الأدبية، كما تقاس به القيمة الفنية والجمالية في النصوص الإبداعية عامة، والنصوص الشعرية خاصة.

تلك كلمات قالها شاعر سوري في الشابة المجاهدة جميلة بوحيرد، وهي مقطع من قصيدة طويلة، أهاجت الحماسة وأثارت العواطف والانفعالات، وأصبحت كلمات القصيدة أغنية تتردد على لسان كل عربي من الخليج إلى المحيط، ولم تكن هذه القصيدة، على كل حال، هي القصيدة الوحيدة التي قيلت، وأنشدت في قضية "جميلة"، فقد انطلق لسان الشعراء من عقاله، وانطلقت الأقلام لتثير من خلال قضية "جميلة" قضية الجزائر كلّها، مركزة على وحشية القمع الاستعماري لثورة الأحرار في الجزائر. وهو الشيء الذي أكسب القضية أبعادا عربية ودولية.

لقد تعددت النصوص الشعرية وتنوعت فتفاوتت من الناحيتين فنا وجمالية، بخاصة عند كبار الشعراء العرب من أمثال : سليمان العيسى ونزار قباني وصلاح عبد الصبور ونازك الملائكة وعبد الوهاب

مفهوم الشعرية:

يقول جان كوهن: " الشعرية علم موضوعه الشعر، وكان لكلمة شعر هذه في العصر الكلاسيكي معنى لا بأس فيه، فقد كانت تعني جنسا أدبيا، أي القصيدة تتميز باستعمال النظم ⁽²⁾. ويقول أيضا: " كلمة شعرية قد عنت زمنا طويلا معايير نظم الشعر، ونظم الشعر وحده ⁽³⁾."

فالشعرية من خلال هذين التعريفين قد ارتبطت في بداية الأمر بالقصيدة الشعرية دون الأجناس الأدبية الأخرى، لأنها تتميز بالوزن والإيقاع الموسيقي، وتقيدها بمجموعة من قوانين النظم، ومع مرور الزمن انتقل معنى الشعرية من المعنى الضيق؛ أي النظم إلى معان أخرى فعرف المصطلح توسعا إلى كل موضوع خارج الأدب من شأنه أن يثير هذا النوع من الإحساس، فاستعملت الكلمة أولا في الفنون الأخرى كشعرية الموسيقى، وشعرية الرسم، ثم استعملت مع الأشياء الموجودة في الطبيعة. و منذ ذلك الوقت لم يتوقف مجال هذه الكلمة عن التوسع حتى أصبحت تحوي اليوم شكلا خاصا من أشكال المعرفة، بل بعدا من أبعاد الوجود، وهكذا أصبحت تعني كلمة الشعرية الإحساس الجمالي الخاص الناتج عادة عن القصيدة الشعرية، وعندها صار من الشائع الحديث عن "العاطفة" أو "الانفعال الشعري".

وعرف مصطلح الشعرية توسعا إلى كل موضوع خارج الأدب، وأصبحت تحتوي بعدا من أبعاد الوجود والخلق، يقول ج. كوهن (J.kohen): "ولا نفكر بتاتا في رفض الاستعمالات الحديثة لكلمة شعر، إذ لا نعتقد أن الظاهرة الشعرية تنحصر في حدود الأدب، كما لا نعتقد أن البحث في الكائنات الطبيعية أو شروط الحياة باعتبارها من عوامل هذه

الظاهرة بحث غير مشروع " ⁽⁴⁾ معنى هذا أنه من الممكن إيجاد شعرية عامة تبحث في الملامح المشتركة بين جميع الموضوعات الفنية أو الطبيعية التي من شأنها أن تثير الانفعال الشعري.

أما ت. طودروف (T.Todorov) فقد أعطاه مفهوما آخر فيقول: " يبدو لنا أن اسم شعرية ينطبق عليه - إذا فهمناه بالعودة إلى معناه الاشتقاقي - أي اسم لكل ما له صلة بإبداع الكتب أو تأليفها حيث تكون اللغة في آن واحد الجوهر والوسيلة لا بالعودة إلى المعنى الضيق الذي يعني مجموعة من القواعد أو المبادئ الجمالية ذات الصلة بالشعر " ⁽⁵⁾. معنى هذا أن كلمة شعرية تتعلق بالنص الأدبي عموما سواء أكان منظوما أم منثورا، بل قد تكاد تكون متعلقة على الخصوص بأعمال نثرية كما قد تتعلق الشعرية أيضا بمقاربات يختص بها العمل الأدبي كالتأويل الذي يتقدم الشعرية أحيانا، ويليهما في الآن نفسه، فالشعرية في كل هذا ترتبط بتقنيات التعبير التي ترتفع بمستوى الكلام عن الأداء العادي المألوف وتسمو به. كما أنها خرق للغة البشرية البسيطة وذلك باستعمال الخيال الذي يغير العلاقات التركيبية للغة. الشيء الذي لم يكن مألوفاً في الحقب الكلاسيكية " فمصطلح الشعرية في الحقب الكلاسيكية لا يعني أي امتداد أو أية كثافة خاصة بالإحساس ولا يجسد أي تلاحم أو أي عالم منفصل بل هو فقط انعطاف لتقنية لفظية تتمثل في التعبير وفقا لقواعد أكثر جمالا " ⁽⁶⁾.

اللغة الشعرية:

اللغة الشعرية لغة تقوم على الحركية والمغايرة، حركية النص ومغايرة الإشارات، وإذا كانت لغة الشعر تقوم على الانزياح وخاصيته الانزلاق على مستوى اللغة والدلالة، فذلك شأن القصيدة حيث

جميلة ويمكن للقارئ أن يتساءل ما طبيعة هذه الذات؟ وما الأحاسيس التي تتاب هذه الذات؟ هل هي أحاسيس التمرد، الثورة، المواجهة؟ أم هل هي الأحاسيس الأنثوية العادية؛ الحب والجمال...؟

قبل الشروع في رصد هذه الأحاسيس نتفق أولاً أن سبر أغوار ذوات الآخرين ليس بالشيء السهل، فالكشف عن مادة طبيعية في ذات محسوسة شيء سهل، أما الكشف عن أشياء مجردة صورية غائبة عن حواسنا شيء صعب لا يمكن تفسيره في الكثير من الأحيان.

هذا لأن الأدب عامة والشعر خاصة فن يخاطب الإنسان لا كمادة بل جوهر، إنه يخاطب خفقات القلب واحمرار الوجنتين، إنه يخاطب فينا الحب والجمال، ويحاول الأدب أن يمتزج مع الذات الإنسانية من الداخل، ودراستها ذاتا مغلقة معزولة عن كل العوامل الخارجية.

ف ذات الإنسان هي الشيء الذي يمتزج ويتفاعل مع الغير، فتعطي حق الآخرين، و تعطي نفسها حقها، وفي هذا يقول محمد قطب: "لوحة الحياة البشرية تقتضي أن تكون الوجدانات التي يصورها الفن شاملة لكل العواطف البشرية في مختلف حياتها ومجالاتها لامقصورة على لون من ألوان الوجدان"⁽⁹⁾.

ولكل واحد منا ذاته المتميزة من الآخرين، سواء أكانت هذه الذات تميل إلى الرغبة في التحرر والانطلاق، كما هو الشأن لذات "جميلة" التي كانت تصبو إلى التحرر منذ نعومة أظافرها، فجميلة اسم تكرر كثيرا في قصائد الشعراء و إبداعاتهم، كما هو الشأن عند شاعرنا نزار قباني الذي أفرد لجميلة إحدى روائعه، فلا ندري هل كتب عن جميلة

أصبحت لغتها إشارية في أعلى مستوياتها، وهي لغة مشحونة وممتلئة تخرج عن المألوف في أساليب الربط، وتكوين العلاقات وكلما تغيرت العلاقات تغيرت الدلالات وكلما كانت اللغة متمردة وممتلئة كلما صعبت مهمة القارئ المتلقي الذي عليه أن يكون مستعدا جماليا وفكريا لدخول النص لأن "الإبداع دخول في المجهول لا في المعلوم"⁽⁷⁾.

كما تجاوزت اللغة الشعرية الزخرفة الأسلوبية التي ترتبط بالوصف الآلي لحركة المجتمع، كما هي على طبيعتها فأصبحت لغة القصيدة لغة شعرية باحتمالاتها وإشاراتها، وصار الخطاب الشعري خطابا يحيل على أكثر من معنى، وينزع إلى الانفتاح على أكثر من رؤية، واللغة الشعرية تخرج بالنص عن أحادية الدلالة، والقراءة الواحدة، وسطحية الكلمات داخل النسيج الشعري. وهنا يأتي دور القارئ الذي يبحر في دلالات وانزياح اللغة، لكي يصل إلى دلالات ومعان وتأويلات النص. وبذلك تتعدد القراءات، فالنص الشعري تلبس باللغة الشعرية، فتتزاخ لغته لتكون " فعالية لغوية انحرفت عن مواصفات العادة والتقليد وتلبست بروح متمردة رفعتها عن سياقها الاصطلاحي إلى سياق جديد يخصها و يميزها "⁽⁸⁾. وهكذا تكون شعرية النص من صنع النص ذاته. وذلك بخصوصية قوانينه الداخلية التي تحيل على الدلالات المجردة والعميقة التي يحملها، فتتفاوت بذلك الأبعاد الفنية للنصوص الشعرية. فما هي يا ترى الأبعاد الفنية لقصيدتي الشاعرين موضوع الدراسة؟

سنبدأ بالبعد الفني عند نزار قباني:

1 - المرأة ذات:

في قصيدة جميلة بوحيرد لشاعرنا العربي المعاصر نزار قباني إحالات كثيرة إلى ذات المرأة

لضرورة الكتابة والواجب القومي؟ أم أنه كتب عن جميلة كذات امرأة تشبه اللواتي أحبهن ؟
وأول ما نلاحظه في القصيدة تكرار اسم "جميلة"، فهل بلغ اهتمام الشاعر بـ"جميلة" إلى هذا الحد الكبير من التكرار الذي لا نجد له مبررا فنيا، فقد يكون الحب، وقد يكون الإعجاب، فهذه الذات الثائرة صوّرها الشاعر تصويرا فنيا يجعل كل واحد

منا يتعاطف مع امرأة أضاعتها فرنسا كل ألوان التعذيب، ووصف هذه الذات وصفا يجعل القارئ يدرك أن "جميلة" ليست امرأة عادية كباقي نساء الجزائر في تلك الفترة، فمنحها بطاقة هوية غير عادية من خلال ما ذكره فيها : الاسم - العنوان مع الرقم تحديدا - السن - الصورة حيث يقول:

الاسم جميلة بوحيرد

رقم الزنزانة تسعونا

في السجن الحربي بوهران

والعمر اثنان وعشرونا

عينان كقنديلي معبد

والشعر العربي الأسود

كالصيف كشلال الأحزان⁽¹⁰⁾.

كان اسمها "جميلة" فهل حقا جميلة حتى وإن لم تكن جميلة، فما قامت به وأنجزته على الرغم من صغر سنّها كان جميلا جدا، في الثانية والعشرين من عمرها كان بوسعها أن تمرح وتلهو وتندمج في الحياة الاجتماعية العادية البسيطة مثل باقي الفتيات الأخريات اللواتي في مثل سنّها، إلا أنها فضّلت

الكفاح على الرضوخ، وفضّلت السجن على حدائق العاصمة، كما فضّلت ظلمة الزنزانة على أضواء الحياة الاستعمارية وإن بدت مضاءة، فضّلت التضحية والموت على أن تحيا ذليلة فانتفضت وثارّت في سبيل حرية هذا الوطن إنها:

امرأة من قسنطينة

لم تعرف شفتاها الزينة

لم تدخل حجرتها الأحلام

لم تلعب أبدا كالأطفال

لم تغرم في عقد أو شال

لم تعرف كنساء فرنسا

أقبية اللذة في بيغال⁽¹¹⁾

جميلة ليست كباقي الذوات النسائية التي كانت تطمح لأن تتزين أو تحلم أو تعشق، فلم تتزين

لحبيب، ولم تحلم بفارس أحلام، بل تزينت بالقيود والسلاسل الحديدية، وسكنت زنزانة مظلمة كان

حلمها فيها تحرير الجزائر، ف"جميلة" لم يكن لها الوقت لتتزين أو تحلم أو تتعلق عيناها بالعقود والحلي وملابس الزينة، فقد كانت مناضلة مجاهدة فداية، كانت ثورة على الواقع، و كانت ميلاد ذات متمرده فكانت ذات غير عادية مؤمنة متجلدة صبورة محتسبة لربها :

ويد تنضم على القران
وامرأة في ضوء الصبح ...
تسترجع في مثل البوح
آيات محزنة الإرنان
من سورة " مريم " ...
و"الفتح" (12)

إذا نظرنا إلى الذات التي عبّر عنها نزار قباني في هذه الصورة نجدها ذاتا محتسبة لربها، متوكلة عليه، لم تتخل عن ذكره في أحلك الأوقات في ظلمة الزنزانة، دون طعام، بلا أنيس، تواجه اللكمات، وتصبر على الهوان، وتتحمّل صعقات الكهرباء التي طالت أماكن حساسة من جسمها، وتطفئ السجائر على نهديها، رغم هذا تمسكت بربها حيث كانت تقرأ القرآن عند أحب الأوقات لله وقت الصبح، علما تجد في سورة مريم⁽¹³⁾ العزاء لوضعيتها، فكما كانت السيدة البتول جميلة، إنها شابة عذراء في ظلمة السجن التي تشبه ظلمة الغار الذي أوت إليه السيدة العذراء، وهي تحمل رضيعها الذي بعثه الله لتغيير مجتمعه، فكانت تحمل التغيير والتبشير لقيم جديدة ولمجتمع جديد، فهو ثورة على ما كان سائدا وقتذاك، هذا الرضيع الذي هو الفكرة التي كانت تحملها جميلة، هو الثورة على الوضع الذي فرضه

الاستعمار الفرنسي، فحاولت "جميلة" أن تشحن ذاتها من ذات مريم العذراء كي لا تفشل أو تستسلم أو تتنازل عن قضيتها الأولى والوحيدة ألا وهي الجزائر، فهنا أسقط الشاعر صورة السيدة مريم على "جميلة" حتى يعلن أن هذا الكيان الأنثوي الضعيف النحيف يحمل بداخله ثورة كبيرة، سوف تقضي على هذا المستعمر وتنتصر عليه وتنقل الجزائر إلى غد أفضل تنعم فيه بنسائم الحرية، هذا هو اليقين الذي آمنت به "جميلة" وهي تقرأ سورة الفتح: ﴿وَيُنْصُرْكُمُ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾⁽¹⁴⁾ هذا النصر الذي وعد الله عز وجل به سيدنا محمد - صلعم - بعد ما عانى من قومه و من المشركين ما عانى، فالنصر آت لا محالة، فتضحية "جميلة" خطوة على طريق النصر، وفداء على درب الحرية.

أنثى كالشمعة مصلوبة
القيد يعض على القدمين
وسجائر تطفأ في النهدين
ودم في الأنف وفي الشفتين
وجراح جميلة بوحيرد
هي و التحرير على موعد⁽¹⁵⁾

ففي هذا المقطع يؤمن الشاعر مثلما تؤمن جميلة
بحتمية النصر، وانجلاء المستعمر عن هذه الأرض
والشفيتين، فالنصر آت، وتتدمل الجراح بفرحة
الحرّة الأبية، فمهما صلبوها، وقيدوا قدميها، وأطفؤوا
سجائرهم على النهدين، وسال دمها من الأنف
والاستقلال و التحرر.

مقصلة تنصب ... والأشجار

يلهون بأنثى دون إزار
وجميلة بين بنادقهم
عصفور في وسط الأمطار
الجسد الخمري الأسمر
تنفضه لمسات التيار
حروق في الثدي الأيسر
في الحلمة ..
في...في...يا للعار⁽¹⁶⁾

ركّز الشاعر في القصيدة على قصة التعذيب،
ولم يفلت التفاصيل الدقيقة حتى يبرز لنا مدى
صلابة هذه الذات الأنثوية، فقد انطلق من التصوير
الحسي وذكر كلّ أعضاء الجسم وأطرافه، ليصوّر
ذاتا متمردة ثائرة ثابتة من جهة و يكشف من جهة
أخرى عن وحشية الاستعمار، ويفضح أساليبه وكيف
تفنّن و أبدع في طرق الاستنطاق والردع، لكنه لم
يصل إلى مراده.

امرأة دوّخت الشمس

جرحت أبعاد الأبعاد

ثائرة من جبل الأطلس

يذكرها الليلك و النرجس

يذكرها زهر الكباد

ما أصغر جان دارك فرنسا

في جانب جان دارك بلادي⁽¹⁷⁾

عن قضية معينة، وقد استغلّ الشاعر هذا الجسد

أحسن استغلال.

من خلال إعطائه أبعادا مختلفة جعلت منه أداة
للتعبير والتوصيل، كيف لا وقد لقب بشاعر المرأة،
والمتمصّح لشعر نزار قباني يجد أن جسد المرأة طاغ

2- المرأة الجسد:

شكّل جسد المرأة في شعر نزار قباني خريطة
تتضمن كل تضاريسه، وتوضّح كلّ تفاصيله ودقائقه
وألوانه. فتعدّدت الأجساد عنده وتباينت، وأصبح كلّ
واحد منها موضوعا شعريا مستقلا يهدف للتعبير

بشكل كبير، وقد قام صلاح فضل بإحصاء أعضاء المرأة عند الشاعر فوجد منها:

ذكر النهد: 190 مرة

الشفة والثغر: 32 مرة

الجسد: 19 مرة

الشعر: 13 مرة

العينان: 26 مرة (18)

فماذا تمثل بالنسبة له ؟ هل هي القضية أم الأم؟ وهل هي الوطن أم الأرض؟ وهل هي الثورة أم التمرّد؟ وهل هي الجسد أم الذات؟ أم أنها للمتعة والجمال...؟ لم يكن الحديث عن الجسد غاية في حد ذاته ، ولم يكن يوظف النهد لأجل النهد أو الشفة لأجل الشفة، بل كان توظيفه لمثل هذه الأعضاء توظيفاً رمزياً، أراد من خلاله كسر الحواجز التي وضعها المجتمع الشرقي، لقد حقق الجسد في قصائده جمالية نصية ليست جمالية حسية شهوانية بقدر ما هي جمالية دلالية انزياحية.

فجسد "جميلة" في هذه القصيدة هو عنوان التحدي والتمرّد والثورة، هو وقفة الإنسانية كلّها في المحراب الأنثوي الذي يأخذ معنى إشارياً وانزياحياً يستقر في ممارسة طقوس التعبد في ذات المرأة بطهارتها وصفائها، لذلك يختار الشاعر الجسد بكل أعضائه يلاحقه في زمن لا يعترف بالإنسان كجسد بل لا يعترف بفؤاد يخفق مع إيقاع الحب الطاهر والرؤية النبيلة.

وفي القصيدة تحوّل الجسد- الجمال- إلى تمرّد أنثوي، فلا يجب أن نقف معه عند الإثارة الخارجية لحواسنا، بل يثير فينا لذة فنية ومتعة جمالية، ومن هنا نعدّه موضوعاً للتجربة الشعرية، فكان بذلك الجسد عند نزار في مجمله مجموعة من الاحالات والإشارات وكلّ مكان فيه له دلالة الخاصة، وقد

عبّر نزار عن الجسد كما في كلّ قصائده بلغة شاعرية متميّزة تقترب من اللغة البسيطة العادية اليومية، التي لا تكاد تختلف عن العامية من حيث وضوحها، فجعل بذلك شعره في متناول كلّ من يتكلم العربية وجعلها "عصفورا يحط على نوافذ كل الناس" (19). وبإمكان أي قارئ أن يفهم قصد الشاعر دون أي جهد، كما يتميز برقّة وسلاسة ألفاظه، حيث نشعر عند قراءة شعره أنه يعطي للغة ظلالاً وانسيابية حاملة، فيخلق جواً رومانسياً وبخاصة في قصائده الغزلية، كما أن لغته تصلح للهمس أكثر منها أداة للتحريض الثوري، وفي قصيدته جميلة بوحيرد وظف لغة صاغ بها تجربته الشعرية، فجعلنا نتعاطف مع "جميلة"، ولكن لا نشور ولا نشعر بالتحريض على الثورة.

البعد القومي عند سليمان العيسى

احتلت الثورة الجزائرية عند الشعراء العرب مكانة كبيرة ومنهم الشاعر سليمان العيسى الذي كتب حولها أشعاراً كثيرة من منطلق فكره القومي، وانتمائه العربي، واهتمامه بقضايا الأمة، فكان من "الشعراء الواضحين في التزامهم فأثاره الشعرية حتى اليوم تلتزم القومية العربية ملحقاً بفكر اشتراكي" (20) ومن بين أعماله قصيدة جميلة بوحيرد (21) التي عبر من خلالها الشاعر سليمان العيسى عن مشاعره العربية وقوميته من خلال المجاهدة "جميلة"، فكانت للمرأة في هذه القصيدة دلالات مختلفة عن تلك التي رأيناها مع نزار قباني:

1 - المرأة الثورة:

جعل الشاعر من "جميلة" رمزاً ثورياً و بطولياً، فكانت هي الثورة الجزائرية في بعدها القومي والعربي هي الجزائر، هي النضال، لأن الشعور بالواجب القومي يحتمّ عليه ذلك حيث يقول:

ما زلت يا صديقة الصحراء في الطريق
 منارة خضراء
 أنشودة عذراء
 تشير من خلف الحديد البارد الصقيع
 فيخشع الأمس و يصغي الحاضر
 وتقف الجزائر
 كالمارد المنسوج من عزم و من صمود
 لتلوي القدر
 لتكتب الظفر
 لكي ترد للصباح نجمة الخلود

في هذا المقطع تحيلنا لغته أو بالأحرى قائله
 على أن جميلة هي الثورة، هي التحرير الذي صنعته
 الجزائر لأجل استرداد استقلالها، فالمرأة تشير إلى
 الصمود الذي تحلى به ثوار جيش التحرير، فذاقوا
 ويلات السجون ومرارتها، وعانوا وحشية التعذيب،
 فكان لهم أن غيروا القدر الذي رسمته فرنسا
 للجزائر، وكان الفاتح من نوفمبر نقطة للتحوّل
 والتغيير ليكتب الظفر للثورة الجزائرية.

وأنت يا أسطورة الصحراء يا نداء
 مازال في قلوبنا يفجر الضياء
 يا نجمة الصبح التي يتمت الصباح
 منذ اختفت في ظلمة السجون
 ومرّت السنون
 وعرّست قوافل ، وارتاح مدجون
 ولم يزل يبحث عن نجمته الصباح
 لتشرق النجوم
 وتورق الكروم
 ويضحك الزنبق ملء السهل والأفاح

غدت جميلة في هذا المقطع نداء للتحرر
 والاستقلال فعلى الرغم من سجنها إلا أنها مازالت
 شعلة تشع بضياءها في قلوب الأحرار و تهدي لهم
 الأمل في العودة، فشبه الشاعر جميلة بنجمة
 الصباح التي هي آخر نجمة تبقى من الليل بعد أن
 تأفل النجوم الأخرى، هذه النجمة التي تهدي كل
 سائر وكل مسافر وكل مدلج، كذلك هذه النجمة
 تكون بين ظلمة الليل ويزوغ الفجر و ضياء
 الشمس، فجميلة في هذا المقطع بتضحيتها وثباتها
 وعزيمتها دلالة على انجلاء وزوال ظلمة الاستعمار
 ويزوغ فجر الاستقلال والتحرر، لتحيا بعدها الجزائر
 حرة مستقلة تعانق الحياة مثلما تورق الكروم، ومثلما

يتفتح الزنابق على كل شبر من أرض الأحرار
الجزائر.

جميلة الاستقلال هي الفجر المنتظر الذي تحلم
به الشعوب العربية و الأمل معلق على ما سيأتي به
ثوار الجزائر وجميلة من هؤلاء الذين ثاروا في وجه
فرنسا وحملوا الموت على أكفهم ومضوا قدما في
تحرير الوطن وبهم أصبح الاستقلال يظهر شيئا
فشيئا لتشهد الجزائر أعراسها وفرحتها ويشهد التاريخ
والعالم على ثورة التحرير ويعترف الجميع أن
استقلال الجزائر لم يسترجع بالزهور بل بالتضحيات
والنضال المرير.

2- المرأة الوطن:

احتلت الجزائر مكانة كبيرة في شعر سليمان
العيسى، فكانت "جميلة" رمزا للجزائر للوطن الجريح

الذي ذاق أهله أبشع استعمار في العصر الحديث،
وأمام عظمة الثورة، ومجد الجزائر التاريخي المليء
بالكفاح والنضال يقف الشاعر وقفة إجلال و إكبار،
ويعترف صراحة أنه مهما كانت النوايب والاضطهاد
والقهر سوف تبقى الجزائر مستعصية على الدخلاء،
ولا يمكن مهما تخيلنا أو تصوّرنا أن نمح صورة
كافية لبطولة الجزائر. ومهما جادت به قرائح
وخواطر الذين كتبوا عنها لن يبلغ مستوى بطولة
الجزائر التي عندها توقّف الخيال وشحت الخواطر
وجفت الألحان، كلّ هذا أمام عظمة الثورة وعظمة
الجزائر التي ستكون ثورة قدوة ورائدة في ميدان
التحرّر والانعتاق من الظلم والاستعباد، وسوف
تهدي للشعوب المقهورة المستعمرة الأمل في الحرية.

يا قصة يلفها التاريخ و النضال

برهبة الجلال

فيصمت الخيال

وتمحي الألحان و الخواطر

و تقف الجزائر

كقلعة شماء تستعصي على الرياح

تهدي الظلام - حيث كان -

نجمة الصباح (22)

فقصة جميلة التي يرويها الشاعر في هذه
القصيدة إنما هي قصة الجزائر، بل أكثر من هذا
هي قصة الوطن العربي الذي عاد له الأمل مع

الثورة الجزائرية بعد سلسلة النكسات التي عاشها في
المشرق، فربط الشاعر مصير العرب بما ستسفر
عنه الثورة الجزائرية:

في رحلة الفجر القريب في الغد العظيم

يصنعه الأحرار

سيحمل الثوار

على يديهم صبحنا المنضّر الوسيم

وفي جبين الأفق

تموج دنيا ألق

من نجمة عائدة كالحب كالربيع

تصافح الجميع

وتشهد الأعراس... أعراس الغد العظيم⁽²³⁾

نزار مقترنة بالتجربة الشعرية التي يعيشها الشاعر، بينما هي مقترنة بالمناسبة أو الحدث عند سليمان العيسى، الشيء الذي يجعل شعرية القصيدة لا تحتل الريادة، بل إن الألفاظ والتراكيب ومثانة الأسلوب هي التي احتلت الصدارة، فلا نشعر بتلك السلاسة والبساطة التي تحمل معها شعرية وجمالية القصيدة، كما هو الحال عند نزار، فنحس أن سليمان العيسى شاعر المناسبات والقومية العربية وانتفاء فكري أكثر منه شاعر وجدان وشعور فنقول هنا : إن شعرية نزار في القصيدة تظهر جلية، لسهولة المفردة والتركيب، ولأنه اكتفى بالدلالة المتداولة، والصورة الحسية الواضحة التي تقوم على أسس التشبيه، وبخاصة تجسيد المعنويات، وفي الغالب الاتكاء على الصفة لتتوب الصورة و تؤدي وظائفها الجمالية والنفسية.

ونخلص في نهاية هذه الدراسة إلى:

- إن نزار لم يتأثر بالوضع الاستعماري الذي كانت تعيشه الجزائر في تلك الفترة، ولم يتأثر بالقضية الجزائرية بقدر ما تأثر بشخصية "جميلة بوحيرد" وقصة سجنها ووحشية تعذيبها.

فالمرأة هنا، هي الوطن، هي الجزائر التي شهد وسيظل يشهد لها التاريخ ببطولاتها وبطولة أبنائها بكلّ تقدير وإجلال ورهبة، لأنّ المليون والنصف المليون الذي دفعته الجزائر ليس بالشيء الهين، وستظل واقفة كقلعة شماء صامدة خالدة عبر التاريخ. قد جسّد الشاعر الثورة الجزائرية في شخص "جميلة"، وهذا دليل على عمق إيمانه بقضية الجزائر، وعدالتها، إنه أكثر الشعراء العرب دعوة إلى التحرّر والانعقاد، وأكثرهم حبا للعروبة ودفاعا عنها، إنها الموضوع الوحيد الذي أرّق وتروق له الكتابة فيه، لأنه عاش المأساة العربية في كل مراحلها وبكل أبعادها.

أما ما نلاحظه بخصوص لغة القصيدة فإنها تتأرجح بين الوثوب، والسقوط، والإبهام والتقرير، والخطابية وبين الغموض أحيانا كثيرة، مما يجعل القارئ لا يدرك المعنى مباشرة، و يحس أحيانا أخرى ببعض الفتور الفني بخلاف شعر نزار الذي قال عنه: "والذي أقرره أن الشعر يصنع نفسه بنفسه وينسج ثوبه بيده وراء ستائر النفس حتى إذا تمت له أسباب الوجود واكتسى رداء النغم ارتجف أحرفا تلهث على الورق"⁽²⁴⁾. ما نفهمه من هذا أن لغة

- غلب على قصيدة نزار الطابع الرمزي والرومانسي المشحون بالمشاعر الإنسانية، الشيء الذي يجعل قارئ القصيدة يتعاطف مع جميلة تعاطفا كبيرا إلى درجة أنه ينسى قضية الجزائر.
- أعطى نزار للمرأة العربية من خلال "جميلة" صورة مثالية سيما وأنها ملهمه الأول.
- تظهر بصورة جلية شعرية المرأة في قصيدة نزار من خلال جعل جميلة الوسيلة والغاية في الوقت نفسه.
- أما سليمان العيسى فنجدته متأثرا بالظروف التي عاشتها الجزائر.
- لم يكن العيسى رومانيا بقدر ما كان شاعر مناسبات، وفكرا قوميا اشتراكيا، بحيث لم يركز على الصورة الجمالية للمرأة العربية بقدر ما ركز على بشاعة الاستعمار الفرنسي وعظمة الثورة الجزائرية.
- عبر العيسى عن القضية الجزائرية من خلال شخص جميلة بوحيرد، فكانت الوسيلة التي طرق من خلالها موضوع الثورة التحريرية.
- "جميلة" بالنسبة لسليمان العيسى هي الفكرة لا المرأة، هي الجزائر في بعدها العربي والقومي.
- إن طغيان الفكرة على القصيدة حد من شعرية لغته التي لم ترق إلى المستوى الشعري المطلوب.

الهوامش

- 1 - نزار قباني، الأعمال الكاملة، منشورات نزار قباني، بيروت، ط1، 1982، ص172.
- 2 - جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، ترجمة، محمد الوالي و محمد العمري، دار توبقال، المغرب، ط1، 1986، ص09.
- 3 - المرجع نفسه، ص11.
- 4 - المرجع نفسه، ص10.
- 5 - تزييفطان طودوروف، الشعرية، ترجمة، شكري الميخوت و رجاء بن سلامة، دار توبقال، المغرب، ط1، 1986، ص26.
- 6 - رولان بارت، درجة الصفر للكتابة، ترجمة، محمد برادة، دار الطليعة، المغرب، 1980، ص58.
- 7 - أدونيس، علي أحمد سعيد: الثابت والمتحول، بحث في الاتباع والإبداع عند العرب، صدمة الحداثة، دار العودة، ط4، 1983، ص311.
- 8 - عبد الله الغدامي، الخطيئة والتكفير، النادي الثقافي جدة، ط1، 1985، ص06.
- 9 - محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، دار الشروق، بيروت، ط5، 1981، ص65.
- 10 - نزار قباني، قصيدة جميلة بوحيرد، ديوان حبيبي والرسم بالكلمات، ط1، 1961.
- 11 - المرجع نفسه.
- 12 - المرجع نفسه.
- 13 - سورة مريم: 48
- 14 - سورة الفتح: 03
- 15 - قصيدة نزار قباني، جميلة بوحيرد، ديوان حبيبي والرسم بالكلمات.
- 16 - المرجع نفسه.
- 17 - المرجع نفسه.
- 18 - صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، دار الآداب، ط1، بيروت، 1995، ص47.
- 19 - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، الأدب الحديث، دار الجيل، د، ط، لبنان، دت، ص، 687.
- 20 - نور الدين السد، القضية الجزائرية عند بعض الشعراء العرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط، الجزائر، 1986، ص85.
- 21 - سليمان العيسى، قصيدة جميلة بوحيرد، المجموعة الكاملة، المجلد 3، دار الشورى، بيروت، لبنان، ط1، 1980.

22 - المرجع نفسه.

23 - المرجع نفسه.

24 - حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، مرجع مذكور سابقاً، ص 696.